الدين الأوّل الأصيل

لم يدّعِ النبي محمد ﷺ قطُّ أنّه أنشأ دينًا جديدًا، بل إنّه ما فتئ يخبر الناس أنّه يدعوهم إلى الدين الأوّل، وقد جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: 30).

إنّ الإسلام هو الدين الأوّل والرسالة الأخيرة، هو البُعد المتسامي للإنسان مُعترَفًا به في مستويات الحياة جميعِها.

والإسلام ليس دينا جديدا وُلد مع دعوة النبي محمد ﷺ، والله ليس إلهًا يختص به المسلمون دون سواهم، فاسم «الله» هو المقابل الحرفيّ في اللسان العربيّ لكلّ كلمةٍ في سائر اللغات جُعلت عَلَمًا على «الإله الأحد»؛ والنصراني العربيّ إذا أراد أن يدعو الإله الأحد قال: «الله».

والإسلام يعني: الخضوع الطوعيّ الحرّ لله وحدَه، وذلك هو القاسم المشترَك بين الأديان الموحى بها جميعِها، دينِ اليهود ودين النصارى ودين المسلمين، منذ نفخ الله في الإنسان من رُوحه، أي منذ أوّل البشر آدمَ عليه السلام.

ولقد أمر الله نبيّه محمدا ﷺ أن يقول: ﴿مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: 9)، وذكّره في غير ما موضعٍ أنه جلّ وعلا أرسل من قبله رُسُلا [الحجر 10؛ النحل 43؛ الروم 57؛ غافر 78]؛ وفي القرآن نقرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ (آل عمران: 144)، فالرسل كلهم كانوا مرسَلين من الإله الأحد لا شريك له.

وتوكيدا لاستمرارية الرسالات النبوية (وهو ما يدعوه القرآن «سنّة الله») يأمر الله نبيه محمدا ﷺ في مواضع عديدة من كتابه العزيز بما في معنى قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾. (الزخرف: 45) [وانظر: يونس: 94؛ النحل: 43؛ الأنبياء: 7]، والله يأمر المسلمين في القرآن أن يوقّروا أنبياء بني إسرائيل والمسيحَ ابن مريم عليهم السلام أجمعين.

والنبي محمد ﷺ جاء ليدعوَ الناس جميعا إلى الرجوع إلى الدين، ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (الروم: 30)، ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (البقرة: 136) [وانظر: آل عمران: 84].

ولقد أرسل الله نبيه محمدا ﷺ مصدّقا لما بين يديه من الرسالات، ومخلِّصًا لها ممّا لحقها من تحريف تاريخي، ومكمّلًا لها ومتمِّمًا، ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ (المائدة: 3).

وإبراهيم عليه السلام هو للمؤمنين الأبُ والدليلُ والمثال، بما حققه من إسلام مطلقٍ لله تعالى، فوق ما يقيّد أمثالَنا من مبادئَ هزيلةٍ ومنطقٍ ضيّق، ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ (الحج: 78)؛ وحين ذكر القرآن زيارة موكب الملائكة الأكرمين لإبراهيم عليه السلام وصفه بأنّه من المسلمين ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (الذاريات: 36)، أي: المستسلمين لله رب العالمين[1]، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمران: 19).

وعيسى بنُ مريم عليه السلام، وإن لم يُزعَم ابنًا لله -تعالى اللهُ عن الولد والشريك-، له مكانةٌ متفرّدة في الإسلام، فليس أحدٌ غيره وُلد من أمّ عذراء، ولا حتى النبي محمد ﷺ؛ وقد وصف اللهُ سبحانه مريمَ ابنة عمران في القرآن بقوله: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: 91)، وتضيف الآية التي تليها: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ (الأنبياء: 92)، وهي العبارة نفسها التي نجدها في سورة «المؤمنون» (الآية 52).

وفي القرآن أيضًا نقرأ قوله تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: 46).

ثمّ إنّ الإسلام دينٌ وجماعةٌ في الوقت نفسه، جماعةٌ مؤسسة على الإيمان، لا بالمعنى الذي عليه سائر الجماعات الدينية، بل بمعنى خاصّ، حيث لا تكون الجماعة المؤسَّسة على هذا المنهج مجرّدَ جماعة دينية، بل

(1) الآية التي استشهد بها المؤلّف مقصودٌ بها لوطُ عليه السلام ومن كان مؤمنا من أهله (بنتاه)، ولكن ورد في القرآن وصفُ إبراهيم بأنّه «مسلم» في مواضع أخرى، منها قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران: 67). [المترجم]

جماعة يتغلغل الإيمانُ في أنشطتها الحيويّةَ كلِّها، لا ما كان منها شخصيًّا فحسب، بل ما كان اجتماعيًّا وسياسيًّا أيضًا؛ فكلّ عَقْدٍ فيها أو معاملةٍ هي «قربان» بالمعنى النصرانيّ للكلمة، سواءٌ في ذلك عقودُ الزواج والمبادلاتُ التجارية والدستورُ السياسي وحتّى معاهداتُ السلام.

والنموذج الأصلي لهذه الجماعة هو المدينة النبويّة التي أسسها رسول الله ﷺ عام 622 لميلاد المسيح عليه السلام، وقد كانت جماعةً من نوع جديد كلَّ الجِدّة؛ فهي ليست جماعة قبَلية قائمة على روابط «الدم» كما عند البدو الرحّل، أو على «الأرض» كما عند أهل الحضَر، ولا هي «أمّة وطنيّة» (nation) بالمعنى الغربيّ، تقوم على وحدة إقليم أو سوقٍ أو لغة أو إرث ثقافيّ، أي: على معطيات كالعِرق والجغرافيا والتاريخ، ومن ثم: على «الماضي»؛ إنّما هي جماعة نبوية قائمة على ما اشترك فيه أهلُها من حياةٍ مبنيّةٍ على «التعالي» الإلهيّ.

وبناءً على القول بتفرُّد الله بالألوهية، تمكّن النبي ﷺ -عبر إقصائه كلّ شكل من أشكال الوثنية- أن يجعل السلطة والثروة نسبيتين.

ولقد كانت المبادئ التي حكمت تلك الجماعة في غاية الوضوح:

- في الاقتصاد: إنِ الملكُ إلا لله.
- في السياسة: إنِ الحكمُ إلا لله.
- في الثقافة: إنِ القولُ إلا لله.